

الفصل السادس

الفتح العربي لمصر وعصر الولاة

ليس في نيتنا أن ندرس هنا التفاصيل التاريخية لفتح مصر على يد العرب، فإن هذا الحدث الهام قد تناوله المؤرخون القدماء بالتطويل، وقتله المؤلفون المعاصرون بحثاً، وقد تعرض المقرئ للكلام عن عدة أحداث تتعلق بأبيدو وقعت في المنطقة قبل أن يفتح عمرو بن العاص مصر، فنذكر أنه في عصر عمر ابن الخطاب، وبعد أن فتح الشام، وقيل أن يفتح العرب مصر، تفرق عرب غسان (وهم مجموعة من الأزدي من كهلان)، وعرب جذام وعرب عاملة، فنزل فريق منهم أرض الجفار حيث أقطعهم حاكم مصر الروماني، وكانوا قد اعتنقوا النصرانية، تيس (صان الحجر) وكان على رأس هؤلاء العرب رجل من بني عامر بن صعصعة (من العدنانية) يقال له أبو ثور من العرب المستعربة، فلما فتحت دمياط، اصطدموا بهؤلاء العرب المنتصرة الذين بلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠، والذين قاموا بمهاجمة المسلمين بمساعدة القبط والروم (البيزنطيين) وكانت بينهم عدة حروب آلت إلي وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه.

أما عن محاربي جيش عمرو بن العاص الذين كانت غالبيتهم من البيدو القحطانيين. فقد منحوا في العاصمة الجديدة القسطاط مساحات من الأرض لإقامتهم وهي -"الخطط"- وقد اختارت بعض القبائل البيدوية سكن الجيزة وكانت لهم فيها خطط وأرسلت حامية منهم إلي الإسكندرية.

لكن كيف يمكننا أن نقرر عدد هذه النواة الأولى التي نشأت على أرض مصر؟ وفق تقديرات ابن عبد الحكم فإن هذا العدد بلغ حوالي (١٢٠٠٠) رجل، ولكن تعوزنا الوسائل والأدلة لكي نتحقق من صحة هذا العدد.

ولم يكتف عمرو بن العاص بإنزال هذه الجماعات الضخمة من الرجال.

ولكنه عمل على تنظيمها؛ فعين على رأس كل قبيلة شخصين مختصين بضبط أحوالها وتمثيلها وهما : العريف^(١) والمحرس، كما وضع عمرو التدوين، حيث تم تسجيل كل قبيلة وكانت القبائل تدون ابتداء بقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب، وبذا أمكن حصر كل قبيلة وتسجيلها مع رفع أنسابها وأصولها في نفس الوقت.

ونود أن نشير إلى أن هذا التدوين الأول قد تلتته ثلاثة تدوينات أخرى : كان الثاني في عصر قرّة بن شريك (٩٠هـ)، والثالث جاء بعده بتسعة أعوام في أيام عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ)، والأخير تم وضعه في ولاية بشر بن صفوان عام (١٠١)هـ، ومن الجائز أن تكون هذه التدوينات قد عملت من أجل ضرورة التعرف على مجموعات البدو التي ما فتئت تزداد وتكبر على أرض مصر، وهل لنا أن نذكر هنا النصيحة الرشيدة التي أعطاها عمرو بن العاص لرجاله، وهي النصيحة التي ربما لم يتبعوها بحدافيرها، عندما رأهم يقيمون على أرض مصر الطيبة والغنية : "إياكم وكثرة العيال"، ولا ننس أن العوامل الأخرى لتكاثرهم في مصر ترجع إلى توافدهم إليها بناء على استدعاء أهلهم لهم؛ ليشاركوا في هذه الغنيمة ويستفيدوا من رخاء مصر وثرواتها، أو لرغبة الولاة في استقدام قبيلتهم وعشيرتهم ليكونوا لهم بمثابة العزوة، وحسبنا أن نثبت هنا أنه بعد مرور عشرين عاماً من الفتح العربي، فإن عدد من سجلوا بديوان مصر قد بلغ (٤٠٠٠٠) عربيّ محارب.

وفي الوقت نفسه، كان في الفسطاط رجل يدور صباح كل يوم على القبائل يسألها "هل وُلِدَ لكم ولدٌ؟ هل قدم عليكم زائرٌ؟" وكان عليه تسجيل المواليد والقادمين لينقلها إلى سجلات الديوان ليحصل كل منهم على العطاء الذي كان لهم. إن وجود

(١) العريف: القائد والمتولي الأمر.

مثل هذا المراقب المتنقل لمؤشر هام على الأهمية التي كان الولاة يولونها لسكان البدو الموجودين في مصر بهدف مراجعة ازديادهم وتحركاتهم.

والواقع أن البدو الذين أنزلوا رسمياً في خطتهم لم يفقدوا مع هذا صفة الرحل فقد حرم عليهم الخليفة عمر ممارسة الزراعة، وقد نفذ عمرو بن العاص هذا الأمر بكل دقة، ولكن هؤلاء البدو كانوا ملاك خيول وأغنام، وكان على عمرو ابن العاص أن يجد الوسيلة - مهما كان الأمر - للمحافظة على صحة الرجال والحيوانات تحت هذه الظروف التي استجدت في حياتهم، فكان أن أصدر الارتباع؛ وهو نوع من الانتجاع الربيعي الذي يتيح للمحاربين من جيشه التنقل في البلاد تاركين للخيول والقطعان الحرية، ففي الوقت الذي كانوا هم أنفسهم يقومون بالقتل وشرب اللبن، كان على المصريين تقديمه إليهم وكان موسم الارتباع يبدأ في نهاية الشتاء، وهو ما يمكن أن نستخلصه من الخطبة التي ألقاها عمرو في هذه المناسبة وكان موسم الارتباع هذا يستمر حوالي ثلاثة شهور، وينتهي ببداية فصل الصيف ومنذ البداية كان النظام يديره وينفذه الوالي، فقد كانت القبائل تتسلم من الوالي الأمر الكتابي للقيام بارتباعها في منطقة معينة، مع ذكر كميات اللبن التي كان على المصريين تقديمها لهؤلاء البدو، ونضيف هنا القبائل كان لها مطلق الحرية في اختيار المنطقة التي يرغبون في انتجاعها أثناء الارتباع وما عليهم سوى اعتمادها من الوالي وتسجيلها بالأمر الكتابي. وهكذا البدو في الانتشار في الأرياف والقرى، وبذلك أصبح وجود البدو في مصر لا يقتصر على المناطق العمرانية فحسب كما بدأ، ولكنه أصبح كاملاً بفضل الارتباع وفقاً لنظرية بقع الزيت وذلك بأن الارتباع كان يتحدد كل عام، كما أن مناطق المرتبعات التي كانت تذهب إليها القبائل خلال هذا الموسم قد أضحت في وقت لاحق بمثابة مكان لإقامتهم شبه المستديمة بعد أن غادروا الفسطاط نهائياً، وهذا ما حدث مثلاً بالنسبة لبني مُلج وحلفائهم الذين نزلوا

في خربتا^(١)، وبالنسبة لبني خشين وفريق من بني لخم وجذام، الذين توجهوا إلى تخوم صان وأبليل^(٢) وطرايبية في الحوف الشرقي.

ومع أن الارتباع كان في مجموعته فرصة سانحة للبدو لكي يتصلوا بأهالي البلاد وأن يقيموا علاقات مختلفة، فلا بد من أن نوضح كذلك أنه قد حدث في عدة مناسبات إجلاء السكان المصريين بالقوة ليتركوا مكانهم للبدو مما ألحق بهؤلاء السكان أضراراً تولد عنها اشتباكات محتومة مع البدو.

والآن وبعد أن تم لهؤلاء اختيار مناطق نزولهم في مصر، فما هي العلاقات التي كانت تربطهم بالسلطة، وإلى أي حد شارك البدو في الأحداث السياسية للعالم الإسلامي؟

ولا بأس من أن نذكر بادئ ذي بدء أن الولاة الذين حكموا مصر لحساب الخلفاء، كانوا كلهم عرباً حتى تاريخ ولاية عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـ - ٨٥٢م)، الذي كان آخر والٍ عربي يحكم مصر لحساب العباسيين، ثم جاء بعده ولاية من أصل غير عربي، فارسي أولاً ثم تركي بعد ذلك وهذا يعني أنه وحتى عام (٢٣٨)هـ لم يكن البدو يحكمهم فقط رجل من بينهم ينتمي إلى نفس أصلهم، ولكنهم كانوا كذلك يزدادون عدداً عند وصول كل والٍ جديد والذي كان يصحب معه نفراً من أهله وقبيلته، فكان يرافقه جموع منهم تضاف إلي جموعهم الموجودة في مصر فعلاً.

وكان هؤلاء الولاة الجدد يبحثون بين هذه العشيرة عن رجال يمكنهم الاعتماد عليهم ويحتاجون إليهم من أجل إدارة مصر، والمعروف أن عامل مصر "مسلمة بن مخلد" كان يُختار بناءً على توصية معاوية بن أبي سفيان رجالاً يتصفون

(١) خربتا: موضع بمصر حوالي الإسكندرية. ياقوت ٤/ ٤١٦، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أبليل: مدينة مصرية مندرسة كانت بقرب صان الحجر، ومكانها يعرف اليوم بتل بليم.

القاموس الجغرافي، القسم الأول، ص ٤. ط. الهيئة المصرية للكتاب.

بالأمانة والعفة لتقليدهم المناصب الهامة من بين قبيلة الأزد لما كانت تتمتع به هذه القبيلة التي حضرت إلى مصر مع الفتح العربي من سمعة طيبة.

وقد حدث أيضا أن أصبح أحد أفراد القبيلة البدوية حاكما لمصر، ولنذكر مثلا يزيد بن حاتم من قبيلة المهالبة، والذي حكم مصر بين عامي (١٤٤)هـ، و(١٥٢)هـ، وكذلك ابنه الذي أصبح حاكما لمصر لمدة عام (١٧٤)هـ - (١٧٥)هـ، وكان على الأب يزيد أن يقمع ثورات العلويين والأحباش والأقباط والخوارج.

وأخيراً إذا كان دخول هؤلاء البدو إلى مصر إنما هو بصفتهم محاربين قدموا لفتحها، فقد كان من الطبيعي إنن أن نري بطونا من قبائل الأزد والأوس والخزرج في جيش معاوية الذي سار عام (٣٤)هـ لفتح إفريقية، وكانت مصر في عصر الخليفة عثمان بن عفان تضم عناصر موالية للخليفة وآخرين وقفوا ضده، فإذا كانت قبائل مثل كنانة، وبني مدلج التي كانت تنزل بخربتا من أرض مصر، وهي من القبائل الموالية لسيدنا عثمان، فإن عدداً كبيراً آخر من البدو كانوا غير مواليين له بدليل أنه قد حدث في عام (٣٥)هـ أن سافر الوالي عبد الله بن أبي السرح إلى المدينة لمقابلة الخليفة عثمان، وترك عقبة بن عامر الجهني كنانة عنه فقام محمد بن أبي حذيفة بطرد عقبة نائب ابن أبي السرح، ودعا الناس إلى خلع عثمان ولم يكتف ابن أبي حذيفة بذلك، بل أرسل كذلك مائة محارب بقيادة ابن ورقة كما سافر من مصر عمرو بن الحمق، وهو من قبيلة خزاعة وهي بطن من الأزد، للمساعدة في قتل الخليفة عثمان، وقد نجد الآن تفسيراً للاثهام الموجه من السيوطي الذي يؤكد أن الخليفة عثمان قد قتل "بيد المصريين"، أي بأيدي عربية قائمة من مصر، أو بعبارة أدق: على يد رجل من كندة.

إن الأحداث التي هزت الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان، وحتى نهاية العصر الأموي، لم تؤثر على بدو مصر إلا في القليل، ولم يكن تأثيرها محسوساً إلا في تقادم المعارك بين مختلف القبائل البدوية، وهي المعارك التي كان الخلفاء

ينحازون فيها إما إلي القحطانيين وإما إلي العدنانيين، وترجيح أحد الفريقين على الآخر، وجاء الخليفة هشام (١٠٥هـ - ١٢٥هـ) فعين عبید الله بن الحبحاب القيسي كعامل للخراج في مصر، وهي الوظيفة التي شغلها ابن الحبحاب طوال عشرة أعوام (من ١٠٥ إلي ١١٥هـ) ولقد كان لهذا التعيين نتائج هامة بالنسبة لبدو مصر، لأن ابن الحبحاب اتخذ من التدابير أصلحها لكي يرفع من عائد الخراج في مصر، فقام بتعداد السكان وحصر الماشية والأغنام، ومسح الأراضي المنتجة وغير المنتجة ثم استأذن بعد ذلك من الخليفة هشام في إحضار عدة قبائل قيسية إلي مصر لأنه بعد أن أجرى تعداد السكان ثبت لديه أن عدد العدنانيين في البلاد لم يكن بالقدر الكافي، فأعطاه الخليفة الإذن شريطة أن ينزلهم في مكان غير الفسطاط وعندئذ جاء عبید الله بن الحبحاب بالقيسيين إلي مصر بين سنتي (١٠٩هـ، وسنة ١١٤هـ، وأسكنهم في بلبيس، حيث هي كورة ليس فيها أحد، وليس يضر أهلها نزولهم معهم، ولا يكسر نلك خراجاً"، كما جاء في خطاب ابن الحبحاب إلي الخليفة.

وبعد أن أنزل ابن الحبحاب هؤلاء البدو في بلبيس "أمرهم بالزرع ونظر إلي الصدقة من العشور فصرها إليهم، فاشترؤا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلي القلزم"، ونضيف هنا أن ابن الحبحاب قد تمكن كذلك من تحقيق استتباب الأمن في الوجه القبلي الذي كانت تتهدده قبائل البجة، فأرسل جيشاً ضدهم واضطروهم الي قبول الأمان، مما ضمن له فترة لا بأس بها من الهدوء في الصعيد، ويبدو أن نزول القيسيين في الحوف الشرقي عامة، وفي بلبيس خاصة، قد كلل بالنجاح إلي درجة أن هجرتهم إلي مصر لم تنقطع، بل زادت عندما أصبح أحد أفراد قبيلة "باهلة" من قيس - وهو حوثة الباهلي والياً على مصر عام (١٢٨هـ)، وقد تم حصر القيسيين في سنة (١٥٣هـ)، فوصل عددهم إلي (٥٢٠٠) أهل بيت ما بين صغير وكبير، وقد كان هؤلاء القيسيون النازلون بالحوف الشرقي هم الذين سنراهم عام (٨١٤هـ) يهبون لنجدة سكان "قفت" في الصعيد فقد كانت قبائل البجة قد خالفت

الأمان الذي فرضه عليها ابن الحبحاب، وصارت تهاجم فقط، ولما فشلت جهودهم في استجداء مساعدة الوالي لجأوا إلى رئيس القيسيين في الحوف "حكّم ابن النبيحي"، الذي سارع على رأس (١٠٠٠) - ألف من البدو لمحاربة البجة التي دامت طوال ثمان سنوات، وعلى صعيد آخر، فإنه يجدر بنا أن نبين النتائج التي ترتبت على إنزال القيسيين في منطقة الحوف الشرقي، لقد زرعوا المنطقة كما صدر إليهم الأمر، فعمروها واستصلحوا أراضيها زيادة على ذلك، فإن هذا الواقع الجديد قد جعل هؤلاء البدو المسلمين على اتصال مباشر مع أقباط مصر، وأن هذا الحدث - حسبما يراه المقرئزي - قد كان من جرائه إسراع الفلاحين الأقباط إلي اعتناق الإسلام، كما أنه كان نقطة انطلاق انتشار الإسلام في مصر، وهو أمر لم يتم إذن حدوثه إلا بعد القرن الأول للهجرة.

ولقد ظلت مصر من جهة أخرى على هامش الأحداث التي هزت العالم الإسلامي، ولم تصلها أصداء هذه الحوادث إلا في عصر آخر الخلفاء الأمويين مروان ابن محمد (١٢٧هـ - ١٣٢هـ)، فقد كانت الخلافات بين القيسيين (العذنانيين) وبين اليمانيين (القحطانيين) قد وصلت إلي ذروتها من سوء، واضطر الخليفة مروان بن محمد إلي الالتجاء إلي مصر عام (١٣٢هـ)، هرباً من العباسيين، حيث وجد بنفسه أن سكان الحوف الشرقي وأهالي الإسكندرية وحتى أهالي الصعيد وأسوان كانوا قد أصبحوا من أعوان العباسيين، فاغتاظ لذلك مروان، ويقال: إنه أمر بإحراق بعض مناطق الحوف.

ومع ذلك فقد رأينا طوال العصر العباسي، أن المنازعات والمشاكل لم تنته بين ولاية مصر وبين البدو، وخاصة مع بدو الحوف، واضطر الولاة إلي حمل السلاح ضدهم، إما لقمع المشاحنات التي كانت تتشعب بين بعضهم البعض لأسباب قبلية، وهي مشاحنات تكرر وقوعها بين القبائل القحطانية والأخرى العذنانية ويستمر أوارها تلقائياً بمجرد وصول وال جديد، وإما لمنع البدو من القيام بأعمال النهب وقطع الطرق كما حدث في أيام الوالي يحيى بن داود (١٦٢هـ).

لقد سبق لنا أن رأينا بدو الحوف يشرعون في ممارسة الزراعة في عصر الأمويين، وها نحن نراهم يثورون ضد الضرائب التي فرضت على الأراضي المنزرعة في أيام العباسيين، وبدأت ثوراتهم من عامي ١٥٧-١٦٨هـ في عهد الخليفة المهدي، وكان واليه على مصر موسى بن مصعب الخثعمي، وكان قد تشدد في جباية هذه الضرائب، فتحالف قبائل الحوف من قيس ويمن لهذا الغرض، ورفضت دفع الضرائب التي أصبحت تثقل كاهلهم، وثاروا ضدها، ولم يتسن إخماد ثورتهم إلا في عام ١٦٩ هـ في أيام الوالي فضل بن صالح. وعاود البدو ثورتهم وامتنعوا عن دفع الضرائب في أيام هارون الرشيد، ففي عام ١٧٧ هـ وأثناء ولاية إسحاق بن سليمان الذي زاد الضرائب، ثار مزارعو الحوف : مغاصة قيس وقضاة، ولكنهم قهروا واضطروا إلي دفع الضرائب هذا ولم يوافق أهل الحوف في عام ١٨٦ هـ على الطريقة التي استخدمها الوالي الليث بن الفضل (١٨٣-١٨٦هـ) في مسح الأرض وقياسها، فنثار البدو وساروا إلي الفسطاط لمحاربتة، أخيراً وفي عام ١٩٠هـ، وعندما كان والي مصر هو الحسين بن جميل ورفض أهالي الحوف دفع الضرائب، واتخذت ثورتهم في هذه المرة صورة النهب والسلب التي وصلت حتي قرى فلسطين، واضطر الخليفة هارون الرشيد إلي إرسال الجيش لقمعهم في عام (١٩١)هـ ونجح هذا الجيش في تهدنتهم. وفي ذلك الوقت، كان القبط يدخلون في الإسلام بأعداد كبيرة لكي يتفادوا الإزعاج في أملاكهم والتخلص من دفع الجزية، ولكنهم كانوا حتي بعد إسلامهم يشعرون بأنهم أقل من العرب، ولذلك كانوا يبحثون عن طريقة للتشبه بهم، حتى وصل بهم الأمر إلي دفع (٦٠٠٠) دينارٍ إلي قاضي مصر عبد الرحمن العمري (١٨٥-١٩٤هـ) لكي يكتب لهم سجلاً لإثبات انتسابهم إلي العرب وسافر هؤلاء الأقباط الذين أسلموا، وهم أهل الحرس إلى بغداد للتصديق من قبل الخليفة على هذا السجل الذي يمنحهم الانتساب إلي قضاة، وقد وصل الأمر إلي حد أن ساعدهم في ذلك بعض أهالي الحوف الشرقي.

ويقول الكندي: إن هناك مجموعات كبيرة من لخم وجذام قد ظهرت في الحوف الشرقي وأصبحوا سادة القحطانيين، وصاروا بذلك منافسين أشداء للعدنانيين في تلك المنطقة، وقد غادرت جماعات من لخم وجذام الحوف وعتدت الدلتا وتوجهت إلى الإسكندرية، وبذلك أصبحت لخم من أهل القبائل في هذه المدينة إلى درجة أن الأسبان الذين هبطوا على الإسكندرية عام (١٩٩)هـ، (وهم جماعة من الأندلسيين بلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ نسمة) اضطروا إلى التحالف مع قبائل لخم التي كانت أقوى وأشد من في البلد، ولما دب الخلاف بين الطرفين دارت المعارك بين الأسبان ولخم، وهزمت فيها لخم، وصار الأسبان هم السادة في الإسكندرية، ثم جاء بطن من بني لخم وهم بنو مدلج فهاجموا الأسبان من جديد ولكنهم اضطروا كذلك للفرار والجلء عن المدينة وأطرافها؛ ولكنهم حصلوا بعد ذلك على موافقة الأسبان لكي يعودوا إلى أماكنهم، ويظهر بنو مدلج على المسرح عام (٢٠٣)هـ، وعندما رفع القبط راية العصيان، وانضم إليهم في ذلك بنو مدلج الذين وصل عددهم إلى حوالي (٢٠٠٠٠٠)؛ ولكنهم انهزموا وانكسروا.

وكان للنزاع على السلطة الذي حدث في بغداد بين الأمين والمأمون، صداه بين بدو مصر، ومثلت جذام ولخم دوراً رئيسياً فيه، فقد كانتا في أول الأمر من أنصار المأمون وأصبح في مصر فرقتان: فرقة حزب الأمين وفرقة حزب أخيه المأمون ثم عندما كتب محمد الأمين إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي - وكان رئيس قيس الحوف - إنقاذ أهل الحوف كلهم معه يمينها وقيسها وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون، وبذلك قويت قيس - وكان علمها أحمر - على اليمينية التي كان علمها أبيض.

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الثورات التي أحدثتها جباية الضرائب المفروضة على البدو المزارعين، ففي عام (٢١٤)هـ قامت الثورة في الحوف، ولم يتسن قمعها إلا في عام (٢١٥)هـ، وبواسطة جيش مكون من الأتراك وبقيادة والي مصر المعتصم عيسى بن يزيد الجلودي وكان من نتيجة انهزام البدو أن قتل

رئيساهما عبد السلام وابن الحليس. وعادت القلاقل للظهور مرة أخرى في السنة التالية سنة (٢١٦هـ)، عندما ثارت قبيلة بني مدلج وانهزمت على يد القائد التركي أفشين وفي نفس هذه السنة، وفي ولاية عيسى بن منصور اضطر الخليفة المأمون أن يأتي بنفسه إلى مصر لإعادة النظام إلى البلاد التي اجتاحتها الثورة التي ضمت بالإضافة إلى البدو عنصراً آخر هو القبط الذين أساء إليهم الوالي، وعندما حضر الخليفة أخضع الثوار، وأمر - بالنسبة للأقباط - أن يقتل رجالهم وأن تباع نساؤهم وأطفالهم، ويقول المقرئزي: إنه منذ تلك اللحظة انهزمت القبط وذلّت في مصر كلها بينما ساد المسلمون، ولم تستمر المعاملة المميزة التي كان العرب يتمتعون بها في مصر، فقد جاء الخليفة المعتصم وأبطل دفع العطاء الذي كان يصرف إليهم من الديوان، وكانت أم الخليفة المعتصم تركية الأصل، وهو الذي زاد من عدد الجنود الترك في جيشه، كما أصدر أمره إلى واليه في مصر كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٧هـ - ٢١٩هـ) برفع أسماء العرب من سجلات ديوان مصر، وإلغاء عطائهم، وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تظهر القلاقل والمشاغبات نتيجة لذلك، فقد قام يحيى بن الوزير الجروي، ومعه البدو من جذام ولخم، وأعلنوا عصيانهم، ولكن المظفر بن الوالي كيدر تمكن من القبض على الجروي بالقرب من تيس عام ٢١٩هـ، ومنذ ذلك التاريخ تفرق الثوار من لخم وجذام، ومن جهة أخرى، فقد اجتذبت مناجم الذهب في الصحراء الشرقية عدة قبائل بدوية، من تلك التي هربت نحو وادي العلاقي، ولكن قبائل البجة التي اعتادت أن تنزل في صحراوات هذه المنطقة لم تكن تسمح بحضور قادمين جدد، وكانت تطاردهم وتحول بينهم وبين النزول في منطقة وادي العلاقي، ثم عمدوا كذلك إلى رفض دفع الجزية إلى والي مصر، وبدعوا في شن غاراتهم على الصعيد، ونهب القرى كما حدث في إسنا وإدفو، وبعد إبحاح من والي مصر عنيسة بن إسحاق أرسلت الخلافة في بغداد جيشاً بقيادة القمي عام (٢٣٨هـ) وكان هذا الجيش مكوناً في غالبية من قبائل مضر وربيعة، وهي القبائل التي كانت البجة قد طردتها من منطقة المناجم، وأنزل

هذا الجيش الهزيمة بقبائل البجة، وعقد اتفاقاً مع زعيمهم على بابا الذي سافر بنفسه لتثبيت هذا الاتفاق إلى بغداد بصحبة القائد المنتصر، وللإعراب عن ولائه للخليفة العباسي المتوكل، وعادت البجة إلى دفع الجزية لوالي مصر، والتي كانت تتمثل في عدد من العبيد، وزرافتين، وفيلين وأشياء أخرى، وعندما تم تعيين الوالي مزاحم بن خاقان عام ٢٥٣هـ لولاية مصر، كان أول عمل بدأ به حكمه هو محاربة بدو الحوف، ثم بدو البحيرة وبدو الفيوم؛ نظراً لأن مشاغبتهم قد أخلت بأمن البلاد ومنعت النظام من أن يسودها، وفي عهد هذا الوالي نفسه.

وعندما كان شنودة بطريركا للإسكندرية، وكان يقودها جابر بن الوليد المدلجي الذي انضم إليه أحد العلويين من الطالبين، وتجمع من حولهم عدد كبير من العرب ودخلوا من الجزء الشرقي لمصر، واستولوا على بنا^(١) ورفضوا الجباية في طول البلاد من بنا إلى مريوط، وكانوا إذا ما لقوا أحد أعوان السلطة أجبروه على تسليمهم ما معه من نقود، ثم يقتلونه بعد ذلك كما نهبوا الكنائس واسترقوا الرجال والنساء والأطفال، وجمعوا غنائم ضخمة دون أن يجسر أحد على مقاومتهم. وقد تشجع زعيمهم بهذه الانتصارات، فقام بصحبة أفضل محاربيه بضرب الحصار حول الإسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا دخولها والاستيلاء عليها لنقص في المعدات، فافتقروا بحصار البلاد ومنع دخول المؤن سواء من جانب النهر أو من جانب البحيرة؛ كما شقوا القنوات لتحويل المياه حتى لا يحصل أهالي الإسكندرية على مياه الشرب سوى من مياه الآبار وما تبقى لديهم بصهاريج المياه ونذرة المؤن في المدينة ولم يكن من المستطاع ابتياعها بأي ثمن، حتى أصبح من المتعذر إقامة القداس بالكنائس لنقص الخبز والنبيد، ولكن سكان رشيد جاءوا لنجدة أهالي الإسكندرية، فحملوا المراكب بأنواع مختلفة من المواد الغذائية، ونجحوا في الدخول إلى الإسكندرية حيث تمكنوا من فك هذه الأزمة، ولكن الحصار ظل

(١) بنا: بلدة قديمة بمصر تضاف إليها كورة من فتوح عمير بن وهب. ياقوت، ١/٥٨٧.

مستمراً، فبنى الحاكم وأهالي الإسكندرية جداراً يحيط بالمدينة ليحتموا من غارات البدو، فكون والي مصر مزاحم جيشاً جديداً من الترك المحاربين الشجعان تحت رئاسة قائد محنك، فهاجم بني مدلج وهزمهم وقضى عليهم تماماً، ومن استطاع منهم الفرار من هذه المذبحة فقد احتموا بالجبال في الصعيد، وأخذت منهم كل غنائمهم التي كانوا قد حصلوا عليها، واستعبدت كل المدن التي كانوا قد استولوا عليها.